ميثاق الذراري

الأقليات.. المشكلة والحل

obeikan.com

obeikan.com

ميثاق الذراري

الإسلام الذي نزل من الله تعالى لهداية البشر من لدن آدم عليه السلام وحتى محمد ﷺ هو دعوة لتحقيق الحرية والعدل والمساواة لكل البشر - فلا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي - بل هو دعوة للجهاد ضد الإكراه في الدين أو في غير الدين.

الإسلام دين الفطرة - والله تعالى - زرعه في فطرة الإنسان قبل أن يستخلفه في الأرض ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾.

وهذا يسمى ميثاق الذراري - إذن قبل نزول الإنسان على الأرض أخذ عليه ربه الميثاق وعلمه الإسلام - ليس هذا فحسب بل زود الله الإنسان بالعقل الذي يستطيع به أن يصل إلى الحق ويعرف الله ويؤمن برسالة الله وهي الإسلام. وأكثر من هذا وضع في الكون من الآيات والمعجزات والتنظيم المبدع والخلاق ما يقود إلى الإيمان بالله وبمنهجه بمنتهى البساطة - إذن فالفطرة أو القلب يقود إلى الإسلام - والعقل أيضًا يقود إلى الإسلام وتنظيم الكون وتدبيره يقود إلى الإسلام أيضًا - إذن فلا مشكلة في الوصول إلى الإسلام والإيمان به. ولكن القوى الشيطانية في المقابل لا تقف مكتوفة الأيدي - فإذا كانت الفطرة تقود إلى الإسلام فلابد من طمس الفطرة - وإذا كان العقل يقود إلى الإسلام فلابد من تقييد العقل - إذن لابد من منع العقل من التفكير بحرية وبلا ضغوط - وذلك عن طريق منع حرية الفكر - أي الاستبداد. وقهر الإنسان تحت ضغط الحاجات الاقتصادية أي الظلم الطبقي والاجتماعي والاقتصادي.

ثم نشر الأفكار الاجتماعية المنحرفة مثل الولاء للقبيلة أو للقومية أو غيرها.

وإذا أدركنا ما سبق نجد أن المسلم ليس مطالبًا بأن يكره الآخرين على الإسلام ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، (البقرة:٢٥٦)، ولكنه مطالب بالتحديد بالجهاد ضد الاستبداد والظلم الاقتصادي والاجتماعي ـ فإذا ما تحرر الإنسان من ذلك اختار الإسلام بسهولة لأن فطرته وقلبه وعقله يقودانه حتما إلى هذا.

إذن الحركة الإسلامية هنا مطالبة بالجهاد من أجل انتزاع حرية التفكير - حرية المناقشة - حرية الدعوة - حرية اعتقاد الإنسان ما شاء من عقيدة أو دين - مطالبة بالجهاد ضد الظلم الطبقي وضد التمييز العنصري وضد الاستكبار - مطالبة بالدفاع عن المستضعفين من كل دين وملة وجنس سواء كان هذا الاستضعاف استضعافا طائفيًا أو قوميًا أو عرقيًا أو عنصريًا أو عن طريق الاستبداد السياسي.

القوى الشيطانية تعمل دائما لقهر الإنسان وحرمانه وظلمه وتحرم بذلك فئة منحرفة ومستكبرة - ومهمة الإسلام هي إنقاذ هؤلاء المستضعفين من براثن الاستكبار، ومن الطبيعي أن ينحاز المستضعفون في كل زمان ومكان إلى الإسلام ويتحالفوا مع أمة الإسلام أو الحركة الإسلامية - والدفاع عن المستضعفين فريضة إسلامية. إذن فالإسلام ليس دينًا طائفيًا.

والحركة الإسلامية أيضًا ليست حركة طائفية - بحكم شريعة الإسلام ومنهج الإسلام في الدعوة والجهاد - وبحكم ظروفها أيضًا - فمن حيث تلك الظروف فإن الصراع بين الحضارة الإسلامية بما تمثله من عدل وحق وحرية وإنصاف والحضارة الأوروبية بما تمثله من ظلم وقمع وقهر انتهى بعد مراحل طويلة إلى سيادة الحضارة الأوروبية بالقهر والتسلط العسكري والاقتصادي على العالم - ودفع العالم ثمنا غاليا من ثوراته ومن دماء أبنائه أيضًا - ألم ترتكب تلك الحضارة الأوربية المذابح ضد الأفارقة وضد الهنود الحمر - بل أبادت الهنود الحمر. وعلى مستوى أفريقيا قتلت ٤٥ مليون زنجي - يوم أن كانت بريطانيا ٣ مليون نسمة أي ١٥ ضعف سكان بريطانيا في ذلك الوقت - أي لو تركت أفريقيا بحالها لكان عدد سكانها اليوم يزيد عن تعدادها الموجود اليوم بألف مليون نسمة أو أكثر - إذن لتغير وجه أفريقيا وربما

وجه العالم. وهذه قطرة من مظالم الحضارة الأوروبية، والحركة الإسلامية اليوم تواجه الاستعمار الأوروبي والأمريكي المتمثل في التبعية الاقتصادية والتدخل وزرع الكيان الصهيوني في بلادنا وفرض أنظمة مستبدة علينا ـ إذن فالحركة الإسلامية ليس أمامها بحكم شريعتها وبحكم ظروفها إلا التحالف مع ضحايا الحضارة الأوربية، وكل من يرفض تلك الحضارة سواء كان مسلمًا أو مسيحيًا أو يهوديًا أو زنجيًا أو خلاف ذلك.

إذا فالحركة الإسلامية ليست حركة طائفية.

* * *

والحضارة الإسلامية لم تعرف طوال فترات تفوقها أو حتى ضعفها أي شكل من أشكال الظلم الطائفي ـ بل عاشت الأقليات في كنفها في رحاب العدل والمساواة وأبدعت تلك الأقليات إبداعًا متميزًا في إطار الحضارة الإسلامية - ولم تسجل أحداث التاريخ أي حالات ظلم طائفي حدثت في إطار الحضارة الإسلامية - وحتى إذا وقع الظلم من قبل الحكام فهو يقع على كل المحكومين مسلمين وغير مسلمين.

وإذا ضربنا مثالا واحدًا وواضحًا على هذا الأمر ـ نجد أن بلدا كلبنان مثلاً عاش في ظل الحكم الإسلامي بدون أية مذابح طائفية فلما انتهى الحكم الإسلامي فيه وسقط في قبضة الاستعمار الأوروبي ـ بدأ لبنان يعرف المذابح الطائفية - بل راح الاستعمار يفتعل ويزكي أوار تلك المذابح فالإنجليز مثلا في سنة ١٨٦٠ حرضوا الدروز على ذبح الموارنة فيما عرف بطوشة النصارى ومن الطريف هنا أنه رغم الوجود الاستعماري الأوروبي في لبنان فإن رجلا مثل الأمير عبد القادر الجزائري وهو الزعيم الإسلامي المعروف الذي عانى شخصيا وعانى معه الشعب الجزائري على يد الاستعمار الفرنسي ـ الذي دمر المساجد وقتل الأهالي وانتزع الثروات بلا هواده - والاستعمار الفرنسي أو فرنسا دولة مسيحية ولو كان عبد القادر الجزائري إنسانًا طائفيًا لشارك في ذبح النصارى في لبنان ولكن لأنه مسلم فهو غير طائفي ولأنه مسلم فإنه يدرك أن التعصب الصليبي الأوروبي يبرر ظلم نصارى لبنان أو

ذبحهم ولأنه مسلم لم يقف ساكتا بل قام بقيادة أتباعه في الشام وعمل على حماية نصارى لبنان من المذابح التي دبرتها إنجلترا وعملاؤها لهم سنة ١٨٦٠.

* * *

إذن فالصحيح أن الإسلام دين غير طائفي - والحضارة الإسلامية غير طائفية والحركة الإسلامية أيضًا غير طائفية.

قد يقول البعض إن هناك تعصبًا إسلاميًا وخاصة ضد أوربا لأن المسلمين يصفون الغزو الأوروبي لبلادنا بأنه غزو صليبي.

ولا يقولون مثلا إنه استعمار فقط - أو رأسمالي أو غير ذلك وفي الحقيقة فإن هذه المقولة يرددها عملاء الاستعمار ومثقفو المدرسة الاستعمارية - فلأن الإسلام دين غير طائفي ولأنه غير متعصب فإنه يكون صادقًا ويصف الأشياء على حقيقتها فهو ليس عنده ما يخفيه أو يخجل منه - لو كان المسلمون متعصبين مثلا لخجلوا من القول بأن الاستعمار الأوروبي استعمار صليبي حتى لا يتهموا بالتعصب أو الطائفية - وعلينا هنا أن نحدد معنى الحضارة الأوروبية الصليبية وما عانيناه منها كمسلمين أو كمسيحيين شرقيين لنعرف إن كان وصف الاستعمار بالتعصب الصليبي صحيح أم خاطئ.

ومنذ ظهور الإسلام - وأوروبا الصليبية تتآمر عليه - وشهد العالم صراعا مستمرا في الزمان والمكان بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الأوروبية - وتكثف هذا الصراع في الحروب الصليبية في الشرق لمدة ثلاثة قرون ١٠٩٨ - ١٢٩٥ ولكنه كان مستمرا في الأندلس قبل ذلك وبعد ذلك وكذلك في الجزائر التي استمرت الحرب فيها أكثر من ألف عام في صراع مستمر مع أوروبا الصليبية إلى أن انتهى ذلك الصراع باحتلالها في ١٨٣٠ وبمجرد احتلالها تم تدمير المساجد بلا رحمة وزرع كنائس التبشير الغربية وإيقاع المذابح بالسكان الآمنين.

أليست هذه صليبية. ثم عندما احتل الإنجليز مصر وقال عبد الله النديم إنها حرب صليبية هل كان هنا ينشر التعصب الديني أو الهوس الديني أم كان يقول الحقيقة

المجردة - ألم يكن هناك صراع بين فرنسا وإنجلترا على احتلال مصر - ولما ظهرت الثورة العرابية فضلت فرنسا أن تضحي بنفوذها في مصر وتعطي الكعكة كلها للإنجليز في مقابل ذبح الثورة العرابية الإسلامية - ماذا نسمي هذا؟ ماذا نسمي تهنئة رئيس وزراء فرنسا للسفير الإنجليزي في باريس بعد موقعة التل الكبير قائلا له "إن انتصار الإنجليز في التل الكبير هو انتصار لكل الدول التي تعمل حسابا للإسلام".

وبماذا نسمي سكوت أوربا على ذلك الغزو في حين أنها كانت تقيم الدنيا وتقعدها من أجل اليونان أو ثورة اليونان ثم ماذا نسمي قول اللنبي عند احتلال دمشق - لقد عدنا يا صلاح الدين.

إذن فهناك تعصب صليبي أوروبي - ومن الإنصاف واللاطائفية وعدم التعصب أن نصف الأشياء على حقيقتها لا أن نتجاهلها حتى لا نتهم بالتعصب - على أن الصليبية الأوروبية لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالمسيحية في الشرق بل بالمسيحية عمومًا، إن الحضارة الأوروبية هي حضارة في جوهرها وثنية إغريقية ذات قشرة مسيحية رقيقة - بل إن البابا في روما يتم تتويجه بنفس مراسم التتويج التي كانت تتم لكهنة المعابد الإغريقية الوثنية القديمة -.

إذن فالصراع بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الأوروبية هو صراع بين التوحيد والوثنية صراع بين حضارة تنحاز إلى الإنسان، وحضارة تقهر الإنسان صراع بين الحرية والقهر، بين العدل والنهب، بين الإنصاف والاستكبار، والموقف الأوروبي المتعصب تجاهنا ليس مرتبطًا باتجاه سياسي أو آخر - بل بكل الاتجاهات السياسية والفكرية والمذاهب والأحزاب والمؤسسات التي أفرزتها الحضارة الأوروبية، الجزائر مثلا تعرضت للمذابح والقهر على يد الملكيين والجمهوريين الفرنسيين - على يد اليمين واليسار - على يد الليبراليين والشيوعيين في فرنسا - بل كانت وتيرة المذابح والقهر ترتفع أكثر مع وصول اليسار إلى الحكم في فرنسا - فمذابح ١٩٤٥ التي راح ضحيتها ٤٠ ألف شخص في يوم واحد جاءت واليسار في الحكم - بل قام وزير الطيران الشيوعي في الحكومة الفرنسية بنسف عدد من القرى الجزائرية ومسحها من الوجود بطائرات سلاح الجو الفرنسي.

وكذلك نجد أن مصر تعرضت للعدوان الثلاثي في ١٩٥٦ على يد الحكومة الاشتراكية في فرنسا - وعلى يد حكومة حزب العمل الإسرائيلي. وإسرائيل ذاتها تتلقى أكبر الدعم من الأحزاب والحكومات الاشتراكية في أوروبا. إذن فكل إفرازات الحضارة الغربية من رأسمالية وشيوعية واشتراكية وفاشية ونازية اتسمت جميعها بروح التعصب الممقوت ضد بلادنا والعجيب أنهم يختلفون على كل شيء إلا على كراهية بلادنا.

وليست كراهيتهم لنا قاصرة على المسلمين - بل هي تطال كل من ينتمي إلى الحضارة الإسلامية حتى لو كان مسيحيًا شرقيًا - ففي أثناء الحروب الصليبية لم يسمح الصليبيون للأقباط بزيارة بيت المقدس - كما قام الصليبيون بخطف ٥٠٠ طفل مسيحي قبطي من دمياط أثناء الحملة الخامسة ١٢١٩ وقاموا بتعميدهم وفق العقائد الكاثوليكية. وقام الملك لويس التاسع ملك فرنسا حين احتل دمياط مرة أخرى بفرض بطريرك كاثوليكي على المدينة. والإنجليز أيضًا فعلوا نفس الشيء - فقد حاولوا زرع كنائس بروتستانتية في مصر عن طريق التبشير - وقد أحست الكنيسة القبطية المصرية بذلك وقام البطريرك كيرلس الرابع بشراء مطبعة لمواجهة مطبوعات الكنائس الإنجليزية ضد الكنيسة القبطية.

* * *

إذن فهناك صراع بين الحضارة الإسلامية وكل من ينتمي إليها من مسلم ومسيحي وبين الحضارة الأوروبية وكل من ينتمي إليها من رأسمالي أو فاشي أو نازي أو شيوعي أو اشتراكي. والحضارة الأوروبية تستهدف السيطرة علينا كمسلمين وكأقباط أيضًا وممارستها الاستعمارية تطال المسلم والمسيحي القبطي أيضًا - ومن الطبيعي إذن أن يكون المسلم والمسيحي القبطي في بلادنا في خندق واحد ضد التحدي الاستعماري الأوروبي على قاعدة الانتماء كمسلمين وكمسيحيين إلى الإسلام كحضارة وكثقافة وكوطن.

وفي الحقيقة فإن وقائع الصراع مع الاستعمار تؤكد ذلك فالأفغاني مثلا وهو رائد

الثورة الإسلامية المعاصرة ضد النفوذ الأوروبي وضد الاستبداد استطاع أن يضم خلفه في صف واحد المسلم والمسيحي واليهودي - أي كل من ينتمي إلى الحضارة الإسلامية أو الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن وكان الأفغاني هذا يعبر عن الإسلام تعبيرًا صحيحًا وناضجًا - ونجد أن من تلاميذ الأفغاني المسيحي كسليم نقاش وأديب إسحق واليهودي كيعقوب صنوع وكل هذا على قاعدة الانتماء والولاء للإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن.

والثورة العرابية - وهي ثورة إسلامية - ضمت في صفوفها المسلم وغير المسلم على نفس القاعدة وهي الانتماء إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن في مواجهة أوربا الوثنية الصليبية - فنجد مثلا أن كُلا من شيخ الأزهر - وبطريرك الأقباط - وحاخام اليهود في مصر قد قام بالتوقيع على قرارات المجلس العرفي بخلع الخديوي توفيق والتمسك بعرابي - وحدث نفس الشيء أيضًا في ثورة ١٩١٩ - فعلى نفس القاعدة وهي قاعدة الانتماء إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن شارك الأقباط إخوانهم المسلمين في كفاحهم ضد الاستعمار الإنجليزي.

❊ ❊ ❊

بالطبع نحن لن نضع رأسنا في الرمال - فهناك من انحاز إلى الاستعمار من الأقباط - ولكن يبقى أن هؤلاء كانوا شذوذًا على القاعدة وكان أيضًا هناك من المسلمين من فعل نفس الشيء مما يجعل الأمر ليس أمرًا طائفيا - بل أمر خيانة يقوم بها فاسد الأخلاق من المسلمين أو المسيحيين على السواء - فكما وجد المعلم يعقوب وبطرس غالي وجد أيضًا رياض باشا - وكما وجد لويس عوض وجد غيره من المسلمين إذ الخيانة والانحياز إلى الاستعمار كان في بطرس غالي المسيحي ورياض باشا المسلم وكان في مثقفين مثل لويس عوض المسيحي وغيره ولكن المشكلة هنا أنه ظهر اتجاه داخل الأقباط ليس مجرد خائن - بل يستند في خيانته على بعض التبرير العقائدي أي يرى أنه تجمعه بالغرب الاستعماري وحدة الدين ولا تجمعه بمواطنيه المسلمين في مصر شيء - وهذا النمط موجود وبكثرة للأسف في أقباط المهجر

وبعض الكنائس في مصر وبعض رجال الدين ولكننا لن نستعرض مواقفهم ومطالبهم حتى لا نوسع دائرة الفتن وبدهي أن هؤلاء يستفزون المسلمين ويستفيدون أيضًا من نتائج هذا الاستفزاز - وهذا القطاع الانعزالي يجب محاصرته وضربه ويجب أيضًا أن يلفظه المجتمع القبطي لأنه يعاكس تراث الكنيسة وتاريخها ومصالحها.

وننبه هنا أن على المسلمين ألا ينجروا إلى الكمائن التي يفعلها هذا القطاع - فمازال جسم الكنيسة القبطية سليما ومنحازًا إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن - ومازالت تلك الكنيسة متمسكة بتراثها رغم محاولات بعض رجال الدين الخروج على ذلك - ومازال على المسلمين كأغلبية أن يظهروا روح الصبر على ممارسات القطاع الانعزالي حتى لا نعطي أعداءنا المتربصين الفرصة التي ينتظرونها.

* * *